المرأة-الأم في رواية شمشون (قض ١٣)

الأخت روز أبي عاد

١- المقدمة

مَن يقرأ سيرة شمشون بمعزل عن سفر القضاة لا يمكنه أن يصنّف بطله في عداد القضاة، بل يجد نفسه بصدد رواية بطل جبّار بقوّته، وولد بضعفه، بعيد كل البعد عن دور القاضي المولج تولّي الحكم بين الشعب. لكن لماذا أُدرج شمشون هذا في عداد القضاة؟ ربّما لأنّ المدخل الى سيرته يوازي المدخل الى سيرة القضاة الآخرين، بحيث نجد عناصر مشتركة بينهم جميعاً:

١: عودة بني إسرائيل من جديد لصنع الشرّ: ١٣:١ ؛ راجع ٢:١١؛ ٣:٧، ١٢؛ ٤:١؛ ٦:١؛ ١٠:٦؛

٢: غضب الرب على إسرائيل: ٢:١٢، ٢٠؛ ٣:٨؛ ١٠:٧،

٣: تسليم بني إسرائيل الى أعدائهم: ١٣:١؛ راجع ٢:١٤؛ ٣:٨، ١٤؛ ٤:٢؛ ٦:١؛ ١٠:٧؛

٤: صرخة استغاثة من بني إسرائيل الى الرب: ٣:٩، ١٥؛ ٤:٣؛ ٦:٧؛ ١٠:١٠؛

٥: تدخّل الرب لإنقاذهم: ٣:١٣؛ راجع ٢:١٦؛ ٣:١٠، ١٥؛ ٤:٤؛ ٦:٨.

بالإضافة الى ذلك، يبقى شمشون البطل شخصية كبيرة: فهو بولادته الخارقة الطبيعة يوازي ولادة اسحق ويعقوب وصموئيل الذين لم يولدوا كسائر الناس، بل بتدخّل إلهيّ مباشر، ممّا يدلّ على أهميّة الدور الذي سيلعبونه.

ولكن رغم وجود نقاط مشتركة بين شمشون وسائر القضاة من جهة، وبينه وبين شخصيّات كبيرة من جهة أخرى، فإنّ لسيرته خصائص فريدة، إذ إنّ نساء أربع سيشكّلن اللولب الذي سيدور فيه مسلسل حياته: فمن بينهنّ مَن ستقبله في قلبها وجسدها قبل أن يرى النور، ومن بينهنّ مَن سيُفتَن بهنّ، ولكن مَن ستكون علاقته بهنّ مصدر مصائب كثيرة ستلمّ به.

نكتفي اليوم بالتكلّم على دور المرأة- الأم، والدة شمشون التي يشكّل ذكرها قفلاً لِـ قض ١٣، إذ بهذه المرأة العاقر يبتدئ هذا الفصل (١٣:٢)، وبهذه المرأة نفسها التي تلد ابناً ينتهي (١٣:٢٤).

٢- معطيات النص

١٣:٢: في هذه الآية نتعرّف الى اسم الرجل، بينما يبقى اسم الأم مغفّلاً؛ والاسم في اللغات الساميّة يدلّ على الإنسان ودوره.

كما تفيدنا هذه الآية عن مفهوم العهد القديم لعدم إنجاب البنين، الذي يعود سببه لعقم المرأة لا محالة؛ فامرأة منوح هي كنساء أخريات عواقر: سارة (راجع تك ١٦:١)، ورفقة (٢٥:٢١)، وراحيل (٢٩:٣١)، كلّهنّ سيلدن ولادة غير مألوفة أشخاصاً سيلعبون دوراً مميّزاً.

١٣:٣: ملاك الرب يتزامن عادة مع رؤية الهيّة؛ ترائيه يعيدنا الى تك ١٨: ١- ١٥؛ ٢٨: ١٠-١٩؛ ربما يريد الكاتب أن يضع شمشون بمنزلة ابراهيم ويعقوب.

١٣: ٤-٥: الأمر الذي يعطيه الملاك يبدو مزدوجاً:

١: هو يطلب من المرأة ألاّ تشرب خمراً ولا مسكراً، وألاّ تأكل شيئاً نجساً؛

٢: أمّا في ما يخصّ الصبي، فعليه ألاّ يقصّ شعره البتة لأنّه يكون نذيراً لله.

١٣:٦: عندما سمعت المرأة البشرى، أسرعت الى زوجها وأخبرته بما جرى لها، علماً انّها لم تذكر له كل التفاصيل،

بل قالت له التعليمات الأساسية. يُذكر انها لم تتفوّه بأي شيء مع البشير، إنّما اكتفت بأن تلقّت منه النبأ.

١٣: ٧: هذه الآية تذكّرنا بالتبشير بمولد صبي لكلٍّ من إبراهيم وحنة ورفقة وراحيل، مع الفرق أن هؤلاء يسألون الله ولداً، في حين أنه، في هذه القصة، لا أحد يفعل ذلك؛ ربّما يقصد الكاتب هنا أن يعلّمنا أن الله هو الذي يدير مصير البشرية وهو الذي يأخذ المبادرة تجاههم.

١٣: ٨: ابتهل مَنُوح الى الرب «ليعود الينا رجل الله»؛ في حين أن امرأته كانت قد أخبرته بأمانة بكلّ ما قاله لها المبعوث الإلهي؛ يبدو طلب زوجها غريباً، ممّا يفترض احد التفسيرين:

١: مَنُوح لم يفهم ما قالته امرأته،

٢: مَنُوح لا يثق بها وبكلامها.

١٣: ٩-١٣: يعرض لنا النص حدثاً شيّقاً؛ فصلاة منوح ستُستجاب، من حيث أنّ رجل الله سيعود، ولكنّه سيتراءى هذه المرة أيضاً للمرأة بمفردها، بل بالحري فإنّ مَنُوح سينطلق وراءه ويُقبل اليه بفضل زوجته؛ فلولا تدخّلها لم يستطع أن يراه.

بعد أن حظي بمشاهدة الرسول الموقّر، تصرّف مَنُوح عكس امرأته تجاهه ، فلم يتحفّظ بأن يطرح عليه كل أنواع الأسئلة، ولكنّ جهوده باءت بالفشل، إذ إنّ كلّ ما تمكّن من أن ينتزعه منه كان أقلّ بكثير ممّا حصلت عليه زوجته، فاكتفى الرسول بأن كرّر عليه: «لتحترز المرأة من كلّ ما قلته لها».

١٣: ٧-١٨: سؤال منوح ملاك الرب عن اسمه كان يتضمّن رغبة في أن يتسلّط عليه، لأنّ معرفة اسم الشخص تعني التسلّط عليه (راجع تك ٢: ١٩)، فلذلك أتى جواب الملاك تملّصياً ومبهماً.

١٣: ١٩-٢١: التقدمة التي هيّأها منوح وأصعدها على الصخرة للرب هي التي ستسنح بأن تعتلن للزوجين هوية الرسول الإلهيّ، إذ كانا قد دعياه حتى تلك المرحلة بـ «رجل الله»، ولكن النص يشدّد على قلّة إدراك مَنُوح الذي «لم يكن يعلم انّه ملاك الرب» (١٣: ١٦) إلاّ بعد فوات الأوان (١٣: ٢١)، فيما أننا نفتقد لأيّ تلميح لعدم معرفة المرأة بمكانة الرسول، بل بعكس ذلك، فمنذ المرة الأولى كانت قد وصفته لزوجها بأن «منظره كمنظر ملاك الله، له هيبة عظيمة» (١٣: ٦).

١٣: ٢٢-٢٣: إن ردّة فعل كلّ من الزوجين على ظهور هويّة الرسول تعكس مفهومهما المختلف للحدث: ففيما مَنُوح، ووفقاً للتقليد البيبلي، يعرف أنّه لا يمكن لأحد أن يرى الله ويبقى حياً (قض ٦: ٢٢-٢٣؛ رج خر ٣٣: ٢٠)، تستبين امرأته القرار الإلهيّ من خلال الظهور الخارق، وتفهم أن الله، لو أراد أن يُميتهم، لما وعدهم بولد ذي مصير مميّز، وبالتالي فهي تؤكّد لزوجها أنّهما لن يموتا (علماً أنّه في الظهور الإلهي غالباً ما يعطي الله ذاته هذا التأكيد).

١٣: ٢٤: لم يذكر النص العبارة المعهودة: «وعرف الرجل امرأته فحملت...» (راجع تك ٤: ١، ١٧، ٢٥...)، وكأنّ تفادي ذكر معرفة الرجل للمرأة، والمقصود به إقامة الجماع الزوجي، أمر معتمَد من الكاتب، إذ ربّما يريد أن يسلّط الأضواء على أمومة المرأة، ويخفتها عن العلاقات الزوجية، في حين أنّه في الفصول ١٤-١٦ ستنقلب المقاييس رأساً على عقب، حيث ستبرز العلاقات الجنسيّة التي غالباً ما كانت فاسدة، وسيتلاشى ذكر الأمومة.

مَن هي المرأة-الأم في قض ١٣؟

ينسب كاتب قض ١٣ الى المرأة-الأم صفات ايجابيّة:

١: خلافاً لنصوص بيبليّة أخرى تُخبر عن التبشير بمولد طفل، فإنّنا نفتقر هنا الى المعلومات المتعلّقة بشخص المرأة؛ فنحن نجهل كلّ شيء عن حالتها وعن عمرها وعن اسمها وعن تذمّرها الى زوجها لعدم إنجاب البنين (كما هي حال راحيل مثلاً، راجع تك ٣٠: ١)، وعن استعانتها بوسائل أخرى لتحصل على بنين؛ (مثلما فعلت سارة وراحيل اللتان أعطتا خادمتيهما لأزواجهما ليدخلا عليهما ويحملا لهما بنين؛ راجع تك ١٦: ٢؛ ٣٠: ٣)، كما نجهل أنّها تلجأ الى الصلاة لتحظى بولد (كما فعلت حنّة؛ راجع ١صم ١: ٩-١٨)؛ أكثر من ذلك، لا نعلم بردّة فعلها لدى ولادة الصبي. ربّما يكون عدم ذكر كل هذه المعلومات يهدف الى إبراز دورها كأمّ، بحيث تكمن قيمتها في مدى تحقيق أمومتها على أكمل وجه. كل ما يمكن أن نقوله فيها إنّها إيجابيّة ولا تخاف من المقدّس.

٢: في ما يخصّ أهليّتها لفهم رسالة المبعوث الإلهيّ وهويّته الحقيقيّة، تبدو امرأة مَنُوح حادّة الذهن، ثاقبة النظر، سريعة التأثّر، متّقية للرب، متفوّقة على زوجها الساذج. لقد ظهر تمتّعها بهذا الحس الإدراكي جليّاً، بحيث إنّها لم تواجه حماقة زوجها، بل احترزت من أن تتصدّى لموقع السلطة

المختصّ به، هو الذي لزمه اجتراح أعجوبة ليتبيّن مصدر الرسول، في ما أنها أدركته حتى دون أن تحتاج الى طرح أي سؤال. لقد أثبتت حقاً أنّها خليقة بالإنعام الإلهيّ.

٣: بالرغم من أنّ البشير الإلهيّ تراءى لها مرتين وهي بمفردها، فلقد تصرّفت معه بالحسنى، فلم تدخل معه في محادثة، لا بل أسرعت وأخبرت زوجها الذي سيتولّى بدوره طرح كل أنواع الأسئلة. إذاً هي تتحلّى بالأمانة لزوجها، وبحفظ السرّ، وببوحه فقط داخل بيتها، وبعدم استغلال الفرص السانحة لمصلحتها الشخصيّة، وبعدم مخادعتها لزوجها.

٤: امرأة منوح لم تشكّل أي تهديد له، فهي لا تقوم بالإغراء أو بالتهديد، بل بعكس ذلك، فهي تؤمّن له الضمانة والاطمئنان بعيداً عن كلّ خوف. هي لا تقوم بأيّ عمل من تلقاء ذاتها، وهذا ما يروق للرجل فيها، رغم أن تصرّفها لا يخلو من عدم استقلاليتها تجاهه.

٥: والدة شمشون أثبتت أنّها جديرة بالحظوة الإلهية، لقد قبلت ما أراده لها الله، ولم تضيّع الفرصة، بل أفادت منها، في حين أنّ زوجها بدا محاطاً بالخوف والرعدة.

٦: أثبتت هذه المرأة جدارتها بإقامتها علاقة متّزنة مع زوجها، فأظهرت مقدرتها على إدماجه في المخطّط الذي عجز عن فهمه دون أن تمسّ كرامته كرجل أو أن تُلحق به أيّة إهانة لعدم فهمه ما يجري.

٧: تميّزت هذه المرأة بجرأة الإيمان، هذه الجرأة منحتها القدرة لأن توجِد الحياة، بتدخّلٍ من الرب؛ لقد قبلت عطيّته، وبحرارة سهرت على تتميمها كاملة، فانتصرت على العقم الذي كان يعني آنذاك الحرمان من التخليد بعد الموت. لقد تغلّب خصب ايمانها على عقمها الجسدي.

٨: حكمة هذه المرأة مبنيّة على الفطنة لا على الحدس والأحاسيس؛ إنّها حكمة موثوق بها لأنّها قائمة على الفهم والإستيعاب، فهي بهذا أمّنت الصلة بين الله وزوجها، إذ بعد أن سبقت وقبلت في داخلها الرسالة الإلهيّة، بقي عليها أن تجعل زوجها يقبلها بدوره بفكره وقلبه.

لقد صدق الكتّاب الملهمون حين شخّصوا الحكمة بالمرأة المثاليّة (راجع أم ٤: ٦–٩؛ سي ٥١: ١٩؛ حك ٨: ٢–٩)، وأعطوها صفات المواظبة والفطنة والبرّ والشجاعة، ولم يتوانوا عن ذكرها كملهمة الرجل. لنسمع سفر الأمثال يستفيض بوصف المرأة الحكيمة، هي التي «قلب زوجها يثق بها فلا تعوزه الغنيمة» (أم ٣١: ١١)، هي التي «تأتيه بالخير دون الشر» (أم ٣١: ١٢)، «تفتح فمها بالحكمة، وعلى لسانها تعليم الرحمة» (أم ٣١: ٢٦)، «قاعدة حديثها الاستقامة والحق، فهي لا تغشّ ولا تُغشّ» (أم ٨: ٦–٩).

٩: لقد جمعت والدة شمشون بين الدعوتين الأساسيتين للمرأة، إذ كانت، من جهة، تجاه زوجها עֵזֶר כְּנֶגְדּוֹ («عِزر كنغدو») أي «عون بإزائه» (تك ٢: ١٨)، فطبّقت الفعل العبريّ נָגַד («نَغَد») الذي تتأتّى منه الأداة נֶגֶד («نِغِد»)، والذي يعني «بشّر»، «أعلن»، «أعلم»، فكانت له بحق مصدرَ بشرى، ومن جهة أخرى، شاركت كيانياً في عمليّة الخلق (راجع تك ٣: ٢٠)، فتلقّت الحياة ونقلتها، مُظهرة بذلك أمانتها الراسخة لخدمة الوعد الإلهي ولتحقيقه.

الخاتمة

هل يمكننا أن نجعل من والدة شمشون مثلاً في الإيمان تماماً كالمرأة الكنعانيّة (راجع متّى ١٥: ٢١–٢٨)؟ فهي مثلها بقيت مجهولة الاسم، لكنها برهنت عن إيمان لا يشوبه أيّ شكّ، إيمان تُقاس قوته بقدر الغموض الذي يلفّه.

من ناحية ثانية، ألا يمكننا أن نجعل من امرأة مَنُوح التي تحمل البشرى السارّة، ممهِّدة لنساء عديدات في العهد الجديد؟ لنذكر، على سبيل المثال، أولئك اللواتي حملن بشرى قيامة المسيح إلى الرسل، ومنهم إلى العالم أجمع، دون أن ننسى المثال الأول للبشرى المسيحيّة الذي وصلنا على فم العذراء مريم في نشيدها «تعظّم نفسي الرّب»، الذي ستخلّده الأجيال.

رواية شمشون التي بدأت تخطّها والدته بألوان فرحة، ستكمّل تدوينَها نساءٌ ثلاث من بنات جنسها، ولكنّهنّ سيُنهين سيرته بألوان قاتمة. والسؤال الذي يتبادر الى ذهننا: لماذا؟ من هو المسؤول؟ مَن بإمكاننا أن نضع في قفص الاتّهام؟ هذا ما سنحاول الاجابة عليه في العدد المقبل.

مراجع:

EXUM, J. C., *Fragmented Women. Feminist (Sub) versions of Biblical Narratives* (JSOT 163, Sheffield 1993).